الإسلام في كتابات علماء مقارنة الأديان الغربيين(*)

1 - صورة الإسلام كما رسمها المبشرون والمستشرقون:

لقد شعر الغرب أن الإسلام يشكل تحديًا هائلًا له منذ السنوات الأولى له[2].

ولقد تمثل هذا التحدي في الجوانب العقائدية، فقد جاء الإسلام بالتوحيد الواضح المفهوم السهل النقي، ووضع حدًّا فاصلًا بين الألوهية والبشرية عكس ما كانت عليه العقيدة النصرانية من غموض ولبس وتعقيد، تمثل في الجمع المتناقض بين التثليث والتوحيد، وتأليه البشر، والتجسد والحلول.. إلخ.

كما تمثل التحدي الإسلامي للغرب في الجوانب السياسية، فلقد جاء ليحرر الناس من الظلم والجور والبطش والعسف والاستكبار الذي مارسه ضدهم الأباطرة الغربيون في روما وبيزنطة، فلقد رحبت الشعوب في سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وإسبانيا وجزر البحر المتوسط، إلخ بالفتح الإسلامي أشد ترحيب؛ لأنه جاء ليخلصهم من نير الاستعباد الغربي لهم، ويعلن ويطبق مبادئ حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة، ويشيع روح العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، ويسقط كل أنواع التمييز الطبقي، ويحرر المستبعدين.. إلخ.

وقد تمثل التحدي الإسلامي للغرب في الجوانب الحضارية، حيث أرسى مبادئ التسامح وأغلق أبواب التعصب، وشجع على الانفتاح والتواصل، وفرض طلب العلم على الرجل والمرأة ويسّر سبل تحصيله، وحفظ حقوق الأقليات الدينية، ومنح الإنسان حرية الاعتقاد وحمي سلطانه هذه الحرية، ومن هنا فقد ازدهرت الحضارة الإسلامية ازدهارًا عظيمًا، واضعة كرامة للإنسان هدفًا ساميًا لها.

(1) بحث لنا قدمناه في الندوة الدولية عن مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي بالرياض سنة 1999.

(2) Albert Hourani, Islam in European Thought, Cambridge Uni Press, 1991.
Karen Armstrong, Muhammad, New York, 1992.

ولقد تصرف الغرب إزاء هذه المشكلة العقائدية السياسية الحضارية التي استشعرها؛ تصرفًا ينسجم مع تعصبه وعنصريته واستعلائه، فراح ينسج لهذا الدين الجديد – الإسلام – صورة مزيفة، قلب فيها خصائص الإسلام، وحقائقه رأسًا على عقب، رسم له – بعناية وحرص – صورة سوداء كالحة السواد، بغية تسويق هذه الصورة البشعة المنفرة المخيفة للمواطن الغربي، بهدف تحصينه ضد الإسلام[1].

ولقد احتمل رجال الكنيسة كبر هذا العمل، وتحول رجال الكنيسة إلى مبشرين محترفين[2] Missionaries ومستشرقين Orientalists، يدرسون الإسلام من كل جوانبه، بهدف دحضه أو تشويهه، بغية تسميم عقل المواطن الغربي ووجدانه ضد الإسلام ليصبح كارهًا له خائفًا منه، وبذلك يبلغ الغرب هدفه في تحصين مواطنيه ضد هذا الدين.

ولقد أنجز المبشرون الغربيون والمستشرقون أكبر وأوسع عملية تزييف وعي أو غسيل مخ في التاريخ الإنساني كله، لقد خان هؤلاء أماناتهم ولم يقدموا لذويهم في الغرب الحقيقة – حقيقة هذا الإسلام بخصائصه السامية – كما هي عليه، فأساءوا إلى مواطنيهم، وأساءوا إلى الإنسانية كلها؛ إذ تسببت أعمالهم ودراساتهم في توتر العلاقات وتكريس العداء المزمن المستحكم بين الغرب والإسلام والمسلمين، فضلًا عن تأجيج نيران الحروب الصليبية في العصور الوسطى، ثم حروب الاستعمار، ثم محاولات الغرب المستميتة للهيمنة وفرض السيادة والسيطرة على المسلمين.. لقد برز تلاقي الاستشراق

(1) انظر كتابنا الاستشراق، دار الفكر العربي بالقاهرة، 1993م.

Edward said. Orientalism. New York. 1979.

(2) Conferences of Christian Workers Among Moslems 1942.

كتاب التبشير: خطة لغزو العالم الإسلامي، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التبشيري الذي عقد في مدينة جلين أيري (كولورادو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978، ونشرته دار Marc بعنوان:

The Gospel and Islam" A 1978 Compendium.

وانظر: د. عمر فروخ، د. مصطفى الخالدي: الاستعمار والتبشير، ط2، المكتبة المصرية، بيروت.

Obeikandl.com

مع التبشير في الأهداف بموافقة مجمع فيينا الكنسي[1] على إنشاء أقسام للدراسات العربية والإسلامية في جامعات أوروبا الكبرى سنة 1314م، ولقد تحالفنا فيما بعد مع الاستعمار العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي الغربي للعالم الإسلامي[2].

وهكذا قد أصبح العداء للإسلام والكره العميق له مسيطرًا على المناخ العقلي الغربي العام لدرجة أن عباقرتهم الكبار أمثال شكسبير ودانتي وفولتير وكارلايل لم يستطيعوا الإفلات منه، فما بالك بالإسلام العادي[3].

2 – صورة للإسلام كما رسمها علماء مقارنة الأديان الغربيون:

بعد أن أشرنا إلى الصورة الشائهة المزيفة التي رسمها للإسلام كل من المبشرين والمستشرقين، نأتي إلى الجماعة الثالثة التي هي محل عنايتنا في هذا البحث، وأعني بهم علماء مقارنة الأديان الغربيين.

يجدر بنا أن نشير – هنا – إلى أن علم مقارنة الأديان، أو علم دراسة الأديان علم حديث النشأة في الغرب[4]، فلقد وضع وثيقته التأسيسية في منتصف القرن الماضي عالم الفلولوجيا: ماكس ميوللر، ولقد ذهب علماء مقارنة الأديان إلى أن دراسة الأديان دراسة منهجية موضوعية تساعد على اكتشاف الذات في ضوء اكتشاف الآخر، ولعل ذلك يترجم الشعار الذي أعلنه ماكس ميوللر وقال فيه:

Who knows one knows none

أي أن الذي لا يعرف إلا ديانة واحدة، فهو لا يعرفها معرفة عميقة موضوعية، أو معناه حسب تفسير مؤرخ الأديان الكبير Eric sharpe: أن الذي يعرف المسيحية فحسب، فهو لا يعرف شيئًا.

(1) Francis Dovemik. The Ecumenical councils. NY 1961.

(2) راجع: تراث الإسلام، القسم الأول، شاخت وبزوت، سلسلة عالم المعرفة.

(3) الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة بالكويت، 1957م.

(4) Eric Sharpe. Comparative Religions. NY. 1961.

وقد اتخذ علم مقارنة الأديان لنفسه مناهج متنوعة، من أهمها:

- المنهج التاريخي الوصفي descriptive Historical Approach

- المنهج التحليلي المقارن، والمنهج الاجتماعي والأنثروبولوجي والمنهج النفسي والظاهراتي Phenomenological، والمنهج النقدي[1] إلخ.

وما قصدت التنبيه إليه هنا، هو أن علم مقارنة الأديان عندما نشأ في الغرب، كانت الصورة التي رسمها الاستشراق والتبشير للإسلام قد استقرت في العقل الغربي، وتشربها الوجدان الأوروبي تمامًا.

ويمكننا القول: إنه بالرغم من انفصال علم مقارنة الأديان عن الاستشراق والتبشير موضوعًا ومنهجًا، فإنه - أي علم مقارنة الأديان - قد وظف - إلى حد ما - في دراسته للإسلام بعض ملامح تلك الصورة السطحية النمطية Stereortype التي قد نسجت في البيئة الثقافية الغربية للإسلام واستقرت فيها.

لكننا نلاحظ أن كثيرًا من علماء الأديان الغربيين المعاصرين قد تحرروا من الوقوع في أسر تلك الصورة المزيفة الذائعة في الغرب عن الإسلام، وهنا تكمن أهمية النظر في دراساتهم عن الإسلام، وفيما يقدمونه لطلابهم من معلومات عنه، فهي أصح - إلى حد كبير - من تلك التي روجها المبشرون والمستشرقون، ومن تلك التي تنشرها وسائل الإعلام الغربية بهدف «شيطنة» الإسلام، و«أسلمة» الإرهاب[2].

ولعل السبب في تحسن صورة الإسلام في كتابات علماء الأديان الغربيين يرجع إلى أن معظمهم يعمل لحساب الحقيقة الخالصة في سموها ونبلها وجلالها، وليس لحساب مؤسسة الكنيسة الغربية، أو الحكومات الاستعمارية، كما أننا نلاحظ أن كثيرًا من هؤلاء العلماء يرجعون - عند الكتابة عن الإسلام - إلى مصادر الإسلام

(1) انظر: مناهج علماء الغرب في مقارنة الأديان، صفية عبد الله - رسالة ماجستير بإشرافنا، الجامعة الإسلامية - إسلام آباد.

(2) الأستاذ/ محمد سلماوي، عنوان مقاله الأسبوعي في صحيفة الأهرام القاهرة، أبريل 1991م.

الأصلية، وربما كان للمقارنة بين الأديان دور مهم في التعرف على الخصائص العامة لكل دين؛ لأنه عند المقارنة الموضوعية تتكشف الحقيقة وتستبين، وتفرض نفسها ساطعة آسرة، وقد لاحظنا أن بعض هؤلاء العلماء الغربيين قد تحولوا – مع الدراسة والمقارنة – من الكاثوليكية أو البروتستانية إلى العلمانية – secularism، وقد تعطي هذه الملاحظة ضوءًا على محاولة التعرف على الأسباب الحقيقية وراء إقلاع هؤلاء العلماء عن الافتراء على الإسلام وتشويهه والتنفير منه.

وقد بدأ هؤلاء العلماء – منذ مطلع القرن العشرين تقريبًا – في تأليف كتب عن الأديان الحية في العالم، بمنهج تأريخي وصفي، يتناولون فيه كل ديانة على حدة – من حيث نشأتها، ومؤسسها أو رسولها، والأسفار التي تقدسها، وعقائدها، وعباداتها وطقوسها، وشرائعها ونظمها، وفرقها وتطورها، وأتباعها وتوزيعهم على خريطة العالم المعاصر.

وهذه الكتب كثيرة تعد بالعشرات، وقد تخيرت عددًا من أهمها، وهي كتب تدرس في الجامعات الأمريكية والبريطانية (text Books)، أو تتخذ مراجع علمية أساسية للمختصين في هذا الحقل، وهذه الكتب هي:

* The World›s Religions. by Ninian Smart. Cambridge Unipress. 1989.

* Religions of the World. by Lewis Hopfe. London. 1987.

* Muhammad A Biography of the Prophet. by Karin Armstrong. H. Collins. NY 1992.

* Man›s Religions. by John Noss. Ny 1956.

* The Religions of man. by Huston Smith . USA. 1988.

* The World›s Living Religions. by Geoffrey Parrnder. London. 1974.

* Six Religions in the 20th. Century . by Owen Cole. G. B. 1984.

* History of the Religions; Doctrines & Ideas. by Mircea Elide . USA. 1983.

وهؤلاء العلماء يمثلون مشيخة هذا التخصص في الجامعات الأمريكية والإنجليزية اليوم.

3 - بعض من أخطائهم وسلبياتهم:

لقد وقع بعض هؤلاء المؤلفين في بعض الأخطاء الصريحة، وهي صريحة لأنها تخالف ما عليه الواقع المعلوم، وهي صغيرة لأنها لا تحتاج إلا أن ننبه أصحابها إليها، وأظن أنهم سوف يصوبونها عند تنبيهنا لهم، ومن أمثلة هذه الأخطاء.

قولهم: إن جبريل عليه السلام، عندما نزل على الرسول (ﷺ) لأول مرة في غار حراء، كان ممسكًا بكتاب فيه كلام مكتوب، وقدمه إليه، وقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فالمعلوم من كتب السيرة والسنة أن جبريل لم يقدم كتابًا مكتوبًا للرسول (ﷺ) ليقرأ منه، وهذا خطأ شائع في كتب علماء مقارنة الأديان الغربيين[1] لم ينج منه إلا (هيوستن سميث) و(كارين أرمسترونج) من بين العلماء الذين ذكرنا أسماءهم.

ويذكر (لويس هويفي)[2] رأيًا مدهشًا، هو أن عدد الصلوات في حياة الرسول (ﷺ) كانت ثلاث صلوات، ثم زيدت فيما بعد إلى خمس صلوات.

ومن الأخطاء التي ذكرها المؤلف نفسه[3] أن الإسلام يفرض على الحجيج صيام نهارهم أثناء أداء مناسك الحج في مكة.

ويؤكد جفري برندر[4] أن الإسلام يفرض على المرأة أن تغطي جسدها تمامًا من الرأس إلى القدم أثناء أداء مناسك الحج، فيقول:

Completely veiled from head to foot.

ومن الحكايات العجيبة والطريفة قولهم: إن المسلمين عندما حطموا الأصنام الموجودة بالبيت الحرام بعد فتح مكة، وجدوا صورتين للمسيح ومريم عليهما

(1) See: Owen Cole. Six Religions in the 20 th. Contury. P. 41. Ninian Sman. P. 280. Mireia Elide. History of Religious . Doctrines & Ideas. Vol: 4. P. 76.

وله ترجمة عربية سقيمة، قام بها في سوريا عبد الهادي عباس، دار دمشق 1987.

(2) Lewis Hopfe. Religions of the world. P. 402.

(3) P. 405.

(4) Geoffrey Pamn.der. The word's Religions. P. 12.

السلام، فلم يمسوهما بسوء تكريمًا وتعظيمًا لهما، وقد تكررت هذه القصة في أكثر من كتاب[1].

ويذهب بعضهم[2] إلى أن الإسلام في بدايته كان للعرب خاصة، ومع تطور الظروف والأحوال أصبح عالميًّا تبشيريًّا للناس كافة.

ومن النقاط التي تكاد تشكل قاسمًا مشتركًا لدى أكثرهم، تفسيرهم لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة، بأن محمدًا في بداية الأمر قد جامل اليهود أملًا في اكتسابهم لرسالته، ولما تأكد من إعراضهم، أمر المسلمين بالتحول إلى الكعبة معلنًا الانفصال النهائي عنهم[3].

ومما ألح عليه بعضهم مثل (مرسيا إلياد) [4] مسأله الغرانيق المدسوسة على السنة النبوية المطهرة.

وقد أظهر (أوين كول) سوء فهم لطبيعة الحديث النبوي، فرآه تعليمات شفوية سرية أوحيت إلى الرسول (ﷺ)، وطلب منهم تبليغها إلى العامة وعدم تدوينها، ولعله بذلك يرى أن الحديث النبوي لا يختلف عن طبيعة التلمود لدى اليهود[5].

ومما نلاحظه على بعضهم[6] خلطه بين التعاليم أو التكاليف الشرعية وبين عادات المسلمين وتقاليدهم الشعبية، التي لا تشكل أهمية كبيرة في فكر المسلم وسلوكه.

---

(1) See: G. Parrindcr - P. 17.
Lewis Hopfe, P. 389: 390.
وهي مأخوذة من بعض الكتب التراثية الإسلامية

(2) See: john Noss. P.P. 698: 701.
See too: M. Eliade. P. 67 : compare: O.Cole. P. 40.

(3) M.Eliade,P.85.

(4) 0.P - 75 - 79.

(5) M. Eliade. P. 89
compare: John Noss, P.P. 683.

(6) N. Smart, P.279

obeikandl.com

هذه نماذج من تلك الأخطاء التي وصفناها بأنها صريحة وصغيرة في نفس الوقت، والتي لا ينبغي أن تشغلنا عن النظر في تلك الدراسات وما حفلت به من أفكار بناءة وآراء جادة، ولأن هذه الأفكار والآراء عديدة، فإننا نعطي أنفسنا حرية اختيار بعضها فحسب، لنلقي عليها بعض الضوء، ونترك بعضها لفرصة أخرى.

4 - إقرارهم بأن الغرب قد أساء فهم الإسلام وخصائصه عمدًا:

من اللافت لنظر الباحث أن أكثر علماء مقارنة الأديان الغربيين المعاصرين يقررون بأن الغرب قد أساء فهم الإسلام وخصائصه عمدًا، وأن هذه الإساءة قد بدأت بتغيير اسم الدين، من الإسلام إلى المحمدانية Mohamadanism (أو المهومتانية Mohamtanism) نسبة إلى النبي (ﷺ)، وهذه التسمية الغربية الغريبة للإسلام في رأي (هيوستن سميث): خاطئة ومستفزة[1]، ويقول: إنها خاطئة لأن محمدًا (ﷺ) لم يأت بهذا الدين من عند نفسه، ولكن الله عز وجل هو الذي أنزله كما هو عليه، ومهمة محمد (ﷺ) لم تتجاوز حمله من الله وبلاغه للناس، وأما أن التسمية مستفزة، فلأنها تعطي انطباعًا بأن الإسلام يتمحور حول محمد الإنسان بدلًا من الله تعالى.

ويضيف سميث: إذا كانت المسيحية قد أخذت اسمها من المسيح، فذلك مناسب للمسيحيين لأنهم يؤلهون المسيح، أما إن قلنا عن الإسلام: (محمدية) فذلك يشبه تسمية المسيحية بالبولسية (نسبة إلى القديس بولس)... والاسم الصحيح لهذا الدين هو الإسلام، وهو مشتق من كلمة Salam التي تعني الإسلام، وتعني إلى جانب ذلك إسلام الوجه لله؛ لأن السلام يغمر الإنسان حين يسلم وجهه لله.

ويحدد مؤرخ الأديان Eric sharpe نظرة الغرب إلى الإسلام بأنها مزيج من الكراهية والخوف[2].

(1) Huston Smith.P. 193.

(2) "Mixture of Hatered & Fear" وعبارته Eric Sharpc.P.12.

أما K. Armstrong فإنها قد خصصت فصلًا في كتابها المشار إليه جعلت عنوانه: «العدو محمد» كشفت فيه بشيء من التفصيل التشويهات الغربية المتعمدة للإسلام ولكتابه ولرسوله، وتاريخه وحضارته، تقول المؤلفة:

«إن الإسلام لا يزال خارج دائرة النوايا الطيبة، ولا يزال يحتفظ بصورته السلبية في الغرب، فالذين شرعوا في استلهام أديان مثل دين (زن) أو التاوية يندر أن ينظروا نفس النظرة المتعاطفة إلى الإسلام، فلدينا في الغرب تاريخ طويل من العداء للإسلام، ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يعد يمنع الناس أي وازع من مهاجمة ذلك الدين، حتى ولو كانوا لا يعرفون منه إلا القليل».

وتستطرد الأستاذة أرمسترونج قائلة:

«... كان من المحال على المسيحيين بسبب الخوف من الإسلام أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية، فراحوا يرسمون صورة شائهة للإسلام تعكس بواعث قلقهم الدفينة».

«كان علماء يهاجمون الإسلام باعتباره عقيدة تحريف في الدين، ويصفون محمدًا بأنه الدجال الأكبر، واتهموه بأنه أنشأ دينًا يقوم على العنف، ويمتشق السيف لغزو العالم، وأصبح اسم محمد (الذي تم تحريفه إلى: «ماهوميت») بمثابة البعبع - ما هو ميت - الذي تستخدمه الأمهات في تخويف أطفالهن العاصين. وكانت مسرحيات الرمز تصوره في صورة عدو الحضارة الغربية، الذي حارب قديسنا الشجاع سانت جورج».

«وأصبحت هذه الصورة الزائفة للإسلام تمثل إحدى الأفكار الراسخة في أوروبا، ولا تزال تؤثر في إرثنا ونظرتنا إلى العالم الإسلامي».

وتخاطب الأستاذ أرمسترونج مواطنيها الغربيين قائلة لهم:

«إن من يضع الإسلام في فئة غير مقدسة خاصة به، أو من يفترض أن تأثيره، كان سلبيًّا تمامًا، أو حتى تغلب عليه السلبية؛ يبتعد عن الدقة والإنصاف جميعًا،

بل إنه يعتبر خائنًا للتسامح وروح التراحم اللذين نفترض أن المجتمع الأوروبي يتحلى بهما، والواقع أن الإسلام يتميز بكثير من المثل العليا والرؤى التي ألهمت اليهودية والمسيحية، ومن ثم فقد ساعد الناس على غرس وتنمية القيم التي يشترك فيها مع ثقافتنا الخاصة. والتقاليد اليهودية والمسيحية (الغربية) لا تحتكر عقيدة التوحيد، ولا الحرص على العدالة والتأدب والتراحم واحترام الإنسانية...».

وتشعر أستاذة تاريخ الأديان بالمرارة والأسف لأن: «الحال لم يختلف كثيرًا عما كانت عليه في العصور الوسطى، فزيادة إدراك الحقائق لم تستطع طمس صورة الكراهية القديمة التي تسيطر سيطرة قوية على المخيلة الغربية».

«إن التعصب القديم كان راسخًا إلى الحد الذي جعل الكثير من الكتاب يعجزون عن مقاومة التعريض، دون مبرر، بالنبي من حين لآخر، مما يدل على أن الصورة التقليدية لم تمت. وهكذا نجد (سايمون أوكلي) يصف محمدًا بأنه: رجل بارع الدهاء واسع الحيلة، إذ كان يتظاهر فحسب بالصفات الحميدة المنسوبة إليه، أما دوافعه النفسية فهي الطموح والشهرة.

ويقول (جورج سيل) في مقدمة ترجمته للقرآن: إن أحد الأدلة المقنعة على أن العقيدة المحمدية لم تكن قطعًا سوى ابتكار بشري، هو أنها تدين بنشوتها وتطورها إلى السيف وحده تقريبًا.

وكتب «فولتير» مسرحية عنوانها «محمد أو التعصب»، وفيها يستعين بالكراهية الشائعة لمحمد في جعله نموذجًا لجميع الدجالين الذين أحالوا شعوبهم إلى عبيد للدين متوسلين بالتحايل والأكاذيب، وعندما وجد أن بعض الأساطير القديمة عن محمد (ﷺ) لم تكن فاحشة إلى هذا الحد الذي يرضيه، عمد إلى ابتداع أساطير جديدة أفعمت قلبه فرحًا.

و«جيبون» يزعم أن محمدًا قد دفع العرب إلى اتباعه من خلال إغرائهم بالغنائم

والجنس، أما عن اعتقاد المسلمين بأن القرآن قد أملاه الوحي المنزل على النبي، فقد اصطنع «جيبون» نبرة تعال وترفع قائلًا: إن الإنسان المتحضر حقًّا يرى ذلك من قبيل المحال.

إن تلك الحجة – القرآن – تخاطب، بكل قوة، العربي المخلص الذي يقبل عقله منطق الإيمان والنشوة الدينية، والذي تلتذ أذنه بموسيقى الأصوات، والذي يعجز جهله عن عقد المقارنات بين ثمار قرائح البشرية، فتناغم الأسلوب وجزالته لا يستطيعان التأثير بعد الترجمة، في الكافر الأوروبي، الذي سوف يضيق ذرعًا بمتابعة المعزوفة التي لا تنتهي، والتي تتسم بالنشاز، والحافلة بالأساطير والمفاهيم المجردة، والنبرات الخطابية، والتي نادرًا ما تثير إحساسًا أو توحي بفكرة ما، والتي أحيانًا ما تزحف في التراب.

أما «كارلايل» فإنه قد أنصف النبي (ﷺ) لكنه لم ينصف القرآن الكريم، فقال عنه: إنه خليط غير مترابط، يرهق القارئ، غليظ النسيج، ركيك التركيب، غاص بالتكرار، وبالإسهاب والمغالطات التي لا تنتهي، وباختصار فهو بالغ الغلظة والركاكة والغباء الذي لا يطاق.

وبعد الحملة الفرنسية على مصر كتب «شاتوبريان» يقول: إن الصليبيين حاولوا نشر المسيحية في الشرق، وهي أقرب الأديان إلى «إذكاء روح الحرية» ولكنهم اصطدموا في جهودهم الصليبية بالإسلام وهو عقيدة معادية للحضارة، وهي تشجع بانتظام على انتشار الجهل والاستبداد والرق.

أما القرآن فيقول عنه: إنه لا يتضمن مبدأ واحدًا من مباديء الحضارة، ولا فرضًا يسمو بأخلاق الإنسان، والإسلام على الجملة، يختلف عن المسيحية في أنه لا يحض على كراهية الطغيان أو على حب الحرية.

وتبرز «أرمسترونج» تناقض الغرب مع نفسه في موقفه العدائي من الإسلام قائلة:

«كان بعض نقاد الإسلام، أيام الفكر الطبقي الذي ساد العصور الوسطى، يهاجمون محمدًا لأنه منح الطبقات الدنيا سلطات أكثر مما ينبغي – مثل العبيد والنساء.

وقد انعكس بعد الثورة الفرنسية هذا الوضع، لا بسبب زيادة معرفة الناس بالإسلام، بل لأنه أصبح ملائمًا لما نحتاج «نحن» إليه»[1].

إن الإقرار بأن الغرب قد تعمد إساءة فهم الإسلام منذ نزوله حتى اليوم، وإظهار الأسف على ذلك، هو القاسم المشترك بين عدد كبير من علماء مقارنة الأديان في للغرب، ولقد أرجع بعضهم ذلك الموقف العدائي إلى انغلاق الغرب وتعصبه Ex-clusiveness and Intolerance، وبعضهم إلى الكراهية والخوف، وبعضهم إلى رد الفعل ضد التحدي العقدي والسياسي والحضاري الذي مثله الإسلام لأوروبا منذ تاريخه المبكر.

وإن هذه الروح الجديدة لدى بعض علماء الأديان التي تتسم بالشجاعة الأدبية والميل إلى الإنصاف والموضوعية، تستحق النظر والتشجيع.

5 - الردة العقائدية.. والردة الدستورية:

لم يقف هؤلاء العلماء عند هذا الحد، ولكنهم حاولوا بطريقة أو بأخرى تصحيح بعض الأخطاء والمغالطات التي وقع فيها بعض المستشرقين والمبشرين، ولنأخذ مثالًا على ذلك ما سمي في التاريخ الإسلامي «بحروب الردة» التي تلقفها هؤلاء وشغبوا بها على الإسلام قائلين: إن الإسلام دين لا يؤمن بحرية الاعتقاد ومن ثم لا يحترم حقوق الإنسان والإنسانية.

لم ينظر هؤلاء العلماء إلى المسألة نظرة المستشرقين والمبشرين، ولكنهم رأوا أن أولئك الذين وصفوا بالمرتدين ليسوا إلا ثائرين خارجين على سلطان الدولة وقوانينها.

(1) كارين أرمسترونج: (محمد): فصل «العدو محمد» ترجمة د. محمد عناني، د. فاطمة نصر، سلسلة كتب: سطور، رقم 1، القاهرة 1999، ص: 31 – 69.

يقول «ج بارندر»[1]: بموت محمد فإن كثيرًا من القبائل التي أقسمت له على الولاء والطاعة قد أثارت القلاقل وانفجرت في ثورة، لذلك أرسل أبو بكر الجيوش لإخضاع ثورتها To subdue them again فالمسألة لم تكن «ردة إيمان أو اعتقاد» فحسب، لكنها كانت ردة سياسية ودستورية إن جاز الوصف، والتعامل العسكري مع هذا النوع من الخروج السياسي غير المبرر على سلطان الدولة، لا يعتبر في عرف القوانين الدولية والدساتير الوطنية، مناقضًا لحقوق الإنسان أو منافيًا لحرية الاعتقاد.

ولقد أكد هذا المعنى كله (ل. هوبفي) بقوله[2]: لقد اضطر أبو بكر لإخضاع عصيان أو تمرد بعض القبائل للحفاظ على وحدة الأمة التي بناها الرسول (ﷺ).

And also try to unify the nation that prophet had built

فالأمر كما فهمه هؤلاء العلماء – وهو على صواب – لم يكن مجرد ردة عقيدة لكنه كان تمردًا سياسيًّا استهدف وحدة الأمة، فكيف يشغب أولئك النفر على الإسلام، ويزعمون أنه يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟!، أليست هذه الحرب خيرًا من الفوضى السياسية كما يرى «مرسيا إلياد».

6 - موقف الإسلام من المرأة:

من الموضوعات التي اعتبرها كثير من المبشرين [3] والمستشرقين نقاط ضعف في الإسلام موقفه من المرأة، ولا يكاد المرء يجد كتابًا أو بحثًا لكاتب غربي في الموضوع، يخلو من غمز الإسلام والتعريض بشخص الرسول (ﷺ) بسبب إباحة تعدد الزوجات، وبسبب تعدد أزواجه.

لكننا وجدنا أن علماء مقارنة الأديان الغربيين المعاصرين لا يتفهمون موقف الإسلام من المرأة فحسب، بل نراهم يدافعون عنه ويتحمسون له.

(1) G.parrinder. p. 18.

(2) L. Hopfe. P. 408.

(3) Behind the veil. unmasking Islam.

ولقد جذب انتباههم بشدة ما قامت به أم المؤمنين السيدة خديجة في سبيل الدعوة الإسلامية ومؤازرة زوجها إبَّان نزول الوحي لأول مرة، وما تقدير الرسول لها إلا تقدير للمرأة بعامة، ولقد تمثل هذا في مظاهر عديدة، منها أنه (ﷺ) لم يتزوج في حياتها بأخرى.

يتحدث «أ. كول» عن مكانة المرأة في الإسلام مقارنة بما كانت عليه قبل الإسلام فيقول: لقد منحت المرأة العربية في ظل الإسلام مكانة سامية على العكس تمامًا مما كان عليه حالها المزري قبل الإسلام، إذ لم تكن منزلتها أكثر من منزلة Chattles أي سلعة تباع وتشتري عند الحاجة، ولقد أكد محمد أهمية الزوجة والأم في تكوين الأسرة، ويؤكد «كول» أن الإسلام قد كلفها بالعبادة كما كلف الرجال فيقول: «لقد حض الرسول النساء على الصلاة، ولقد شكل النساء طوال حياته جزءًا من جماعة المصلين في المسجد، على الرغم من أن حضورهن إلى المسجد لأداء الصلاة لم يكن إجباريًّا.

ويستغرب «كول» – وله الحق في ذلك – من الجماعات الإسلامية المعاصرة التي تحرم على المرأة الذهاب إلى المسجد تحريمًا[1].

ولو قارنا ما كتبه علماء مقارنة الأديان الغربيين – عن وضع المرأة في الإسلام – بما جاء في كتابات المستشرقين والمبشرين مثل كتاب « ..Behind the veil Unmasking Islam» وبما تنشره وسائل الإعلام الغربية اليوم لعرفنا موضوعية هؤلاء العلماء وحيدتهم وصدعهم بالحق.

ولقد كتب الأستاذ «هـ. سميث» دفاعًا حارًّا عن وضع المرأة في الإسلام جاء فيه: إن النساء قبل الإسلام كن بمثابة أشياء مملوكة للرجال أكثر من كونهم بشرًا، وكان الرجل يستطيع أن يتزوج عددًا لا حد لكثرته من الزوجات، ويقول: ولنكن أكثر دقة ونذكر أن علاقة الرجل بزوجاته كانت منحصرة في واحدة أو اثنتين، ومن

(1) O. cole.p. 195.

عداهن من الزوجات كن يعاملن أسوأ معاملة وكن نادرًا ما يعاملن كزوجات[1].

ثم يتحدث «سميث» تحت عنوان (وضع المرأة في الإسلام) فيقول: لقد اتهم الإسلام بشكل واسع (في الغرب) بأنه يحط من شأن المرأة بسبب سماحه بتعدد الزوجات.

ولو أننا نظرنا إلى المسألة زمنيًّا، وقارنا بين وضع المرأة العربية قبل بعثة محمد (ﷺ) وبعدها لوجدنا أن التهمة زائفة تمامًا.

في أيام الجاهلية لم يكن للزواج ترتيبات أو إجراءات، وكان من النادر أن يعتد به، أما الزواج المؤقت والمشروط فكان هو المسيطر على الساحة، وكانت النساء في منزلة القطيع يعاملن حسب هوى أزواجهن أو آبائهن، ولم يكن للبنات حق في الميراث البتة، بل كن يدفن أحياء في طفولتهن.

وفي مواجهة تلك الظروف التي كانت تعتبر ولادة البنت فيها مصيبة، فإن الإصلاحات التي جاء بها محمد قد أعلت منزلة المرأة بشكل أساسي، لقد حرم الإسلام، وأد البنات، وفرض للبنت حقًّا في الميراث، نعم إنه لم يسو بينها وبين الرجل، وهذا أمر يتمشى مع مقتضيات العدالة في نظر محمد؛ لأن المرأة لا تتحمل المسئولية المالية في بيتها، بيد أن القرآن قد فتح باب المساواة التامة بين المرأة والرجل فيما يتعلق بالمواطنة والتعليم والانتخابات السياسية Suffrage & Vocation والعمل.

ويقول «سميث»: إن مساواة المرأة الأوروبية بالرجل، ووضعها الاجتماعي الحالي قد تحقق نتيجة التحول الصناعي والديمقراطي، ولم يكن ليتحقق بسبب الدين (المسيحي أو اليهودي).

ولقد قدم الإسلام أعظم إسهاماته لرفع شأن المرأة بوضع نظامه الخاص في الزواج. لقد قدس الزواج وجعل منه السبيل الوحيد المباح للعلاقات الجنسية. إن الادعاءات الغربية بأن الإسلام دين يحض على الشهوات الجنسية Lascivious اتجاه مريض حقًّا، هذا أولًا، أما ثانيًا: فإن الإسلام يتطلب الموافقة التامة للمرأة

(1) Huston smith, p. 218.

obeikandl.com

قبل زواجها، ولا يستطيع رجل ما، ولو كان السلطان نفسه، أن يتزوجها بدون موافقتها الصريحة، ولقد وثق الإسلام – ثالثًا – رابطة الزوجية توثيقًا عظيمًا.

ومع أن محمدًا لم يحرم الطلاق تحريمًا مطلقًا، فإن جعله بمثابة الحل الأخير لمشاكل الزوجين المستعصية، وقد أكد مرارًا على أن – الطلاق – أبغض شيء حلال عند الله... ولقد شرع لإتمام الطلاق ثلاث مراحل مستقلة للتوفيق والإصلاح للتقليل من نسبة الطلاق، ويذكر «سميث» أن أمر الطلاق مكفول للمرأة كما أنه مكفول للرجل في الإسلام.

ثم يناقش «هـ. سميث» مسألة تعدد الزوجات Polygamy ويذكر أن الآراء متفاوتة حولها، والإجماع يزداد على أن الوضع المثالي الذي يراه القرآن هو الزوجة الواحدة Monogamy والنص القرآني: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3] واضح في ذلك. والمساواة في الآية مطلقة، وتحقيق المساواة المطلقة بين الزوجات تؤكد أن القرآن يهدي إلى عدم التعدد في الظروف العادية.

كما أن هناك ظروفًا غير طبيعية قد تمر بالمجتمعات البشرية تجعل من السماح بتعدد الزوجات حلًّا مفضلًا من وجهة نظر أخلاقية، وتلك الظروف قد يمر بها الفرد في حالات المرض الميئوس منه، أو المجتمعات في حالات الحروب التي تحصد الرجال وتجعل عددهم أقل من نصف عدد النساء في بعض الأحيان.. وتعدد الزوجات هو الحل في مثل هذه الأوضاع حتى تحاط العلاقات الجنسية بالمسئولية مع المساواة التامة بين الزوجات والعدالة بينهن، وكفالة حقوق المرأة.

أما في ظل عدم إباحة تعدد الزوجات فإن المرأة تفتقر إلى العاطفة الزوجية، ولا تتمتع هي أو وليدها بالمسئولية والرعاية من الزوج والأب.

وقد ذكر رأيه في مسألة حجاب المرأة وتغطية نفسها كاملة شاملة، فقال: إن ذلك كان من أجل حاجة ماسة تحقق ميزة للنساء في أيام محمد (ﷺ) ﴿...ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ...﴾ [الأحزاب: 59] وهي أمن النساء بعدم إيذائهن، لكنه لم

يقصد إلى تكبيل المرأة بالبردة في غير ما حاجة إليه، أي أن أمر البردة أو الحجاب التام للمرأة ليس مطلبًا عامًّا مطلقًا في كل زمان ومكان ولعموم نساء المسلمين.

ثم يعلق ساخرًا من موقف الغرب من الإسلام فيقول: «إن الصورة الغربية النمطية الشائعة stereotype للمسلم هي أنه رجل ممتشق سيفه ويجر وراءه طابورًا طويلًا من الزوجات»[1].

والحق أن معظم هؤلاء العلماء – على تفاوت نسبي بينهم – قد ناقشوا مناقشة موضوعية ما أطلق عليه في الغرب: وضع المرأة في الإسلام: وقد تحدث كثير منهم بنزاهة عن الحكمة وراء تعدد زوجات النبي (ﷺ) فرأى بعضهم أنها تتعلق بالرحمة والإنسانية النبيلة حيث إن معظم زوجاته كن عجائز أو أيامى حروب.

ويجدر أن أنقل هنا رأي (جفري برندر) الذي يقول فيه: «إن شيئًا ينبغي أن يذكر عن اتخاذ محمد – في وقت متأخر بعد وفاة زوجه خديجة – زوجات عديدات، لأن هذه النقطة كانت محل انتقاد غربي واسع له، لكن هذا الأمر ينبغي أن ينظر إليه في بيئته الشرقية، وإن داود صاحب المزامير وسليمان اللذين كانت حكمتهما محل تقدير عظيم قد اتخذا لهما زوجات عديدات».

ويذكر لنا أمرًا طريفًا إذ يرى أن محمدًا (ﷺ) قد تزوج مرات كثيرة في محاولة منه لإنجاب ولد ذكر، ورغم أنه لم يوفق في ذلك فإنه لم يسيء معاملة أي من زوجاته[2].

7 – التوحيد الأنقى والأصفى:

اتفقت كلمة علماء الأديان الغربيين – من خلال دراستهم للإسلام مقارنًا بالأديان الأخرى – على أن الإسلام هو الصورة النقية الصافية للتوحيد، (مرسيا إلياد): إن رسالة محمد – كما صيغت في القرآن – تمثل التعبير الأكثر نقاء للتوحيد

(1) Huston smith, p. 216 - 218.

(2) G. parrinder, p.14.

المطلق، فالله هو الإله الأوحد، مطلق الحرية كلي العلم والقدرة، خالق السموات والأرض، خالق كل ما هو موجود، فعال لما يريد... يحكم إيقاعات الكون وأفعال البشر، له الحرية المطلقة[1].

ولقد كانت الرسالة الأساسية للقرآن - كما ذكر برندر - هي توحيد الله ومحاولة الوثنية، فالإسلام هو من آخر الديانات التوحيدية التي تدعو إلى الإيمان بإله واحد. أما (ل. هوبفي) فيرى أن الديانة الإسلامية تدعو إلى أشد أنواع التوحيد صرامة، وعقيدته - لا إله إلا الله محمد رسول الله - على النقيض تمامًا من تعددية أهل مكة polytheism، والبيزنطيين الذين كانوا إذ ذاك لا يزالون يتجادلون حول طبيعة المسيح والجزء الإلهي الذي حل فيه، يقول المسلمون: لا إله إلا الله الواحد الأزلي، الذي لا ينقسم ولا يتعدد.

ويرى (ننيان سمارت) أن الخيط الأساسي في الإسلام هو توحيد الله خالق العالم، الذي جعل الإنسان خليفة في الأرض التي هيأها لمنفعته[2].

وبعد أن يشرح «سميث» مفهوم التوحيد في الإسلام يعلق قائلًا: هذا التوحيد هو إضافة الإسلام الأساسية إلى الدين في كليته[3]. وترى «كارين أرمسترونج » أن التفسير الإسلامي لعقيدة التوحيد يتميز بعبقرية خاصة، وعلينا - نحن الغربيين - أن نتعلم منها أمورًا مهمة[4].

فالصورة الأصفى والأنقى للتوحيد هي بصمة الإسلام وخاتمه على الدين كله فيما يذكر هؤلاء العلماء.

---

(1) مرسيا إلياد، ص 88، من ترجمة عبد الهادي عباس.

(2) H.Hopfe.p. 283.

(3) H.smith. p. 205.

(4) كارين أرمسترونج، ص 22 من الترجمة العربية.

8 - الانتشار السريع المذهل للإسلام:

لقد كان الانتشار السريع المذهل للإسلام، وبلوغه ما بلغ الليل والنهار في وقت قصير جدًّا، من أبرز المسائل التي استرعت أنظار هؤلاء العلماء، فمثله بعضهم بالفيضان، وبعضهم بالبركان، وحاولوا التعمق في بحث الأسباب الحقيقية التي هيأت لهذا الدين ذلك الانتشار الهائل الذي لم يشبهه فيه دين آخر أو يقاربه.

يقول «جون نوس»: لقد بدا الإسلام لأولئك الذين وقفوا في طريقه وكأنه نار مستعرة تتأجج من مركزها وتتمدد مندفعة نحوهم بسرعة لا تعرف التوقف أو الإبطاء، ولم يظهر في الأفق ما يكفكف من غلواء نزوع هذا الدين الجديد إلى الفتح والانتشار، حقًّا لقد أوقف زحفه نحو أوروبا، لكنه انتشر بسرعة إلى عمق آسيا وأفريقيا، وزحف إلى مسافة ألف ميل أو يزيد من نقطة انطلاقه...» ثم يذكر «جون نوس» سبب ذلك قائلًا: «إن بساطة هذا الدين ووضوحه قد جذبا إلى تعاليمه تلك الملايين من الذين آمنوا به، وعلى العموم، فإن الإسلام لم يثقل عقول أتباعه بحشد هائل من الأسفار المقدسة، أو بفيض من العقائد الغامضة[1].

أما «مرسيا إليادي» فيرى أن السبب الحقيقي وراء ذلك يرجع إلى أن رسوله قد أظهر دينًا أكثر بساطة من الديانتين التوحيديتين السابقتين (اليهودية والمسيحية)، وأنه لم ينشئ كنيسة وليس فيه كهنوت، وأن العبادة في الإسلام يمكن أن تؤدي في أي مكان، وليس من الضرورة أن تمارس في معبد[2].

ويضيف «جون برندر» عملًا مهمًّا يتفق فيه مع زميله (لويس هوبفي) هو أن الشعوب السورية والمصرية، مع أنها كانت مسيحية إلا أنها قد رحبت أشد الترحيب بالفاتحين المسلمين؛ لأنهم كانوا يرسفون تحت نير البيزنطيين.

They were groaning under the Byzantine yoke

(1) John Noss

(2) مرسيا إليادى، ص 88 من الترجمة العربية.

وقد كان الحكم الإسلامي رحيمًا بهم ولم يقع اضطهاد المسيحيين إلا نادرًا، ومع مرور الوقت، دخل هؤلاء المسيحيون جميعًا في الإسلام، ولم يبق منهم إلا أقليات صغيرة في مصر والشام وشمال أفريقيا[1].

ويتحدث «ل. هوبفي» بشيء من التفصيل عن الأسباب الحقيقية وراء الانتشار السريع للإسلام فيقول: «حين ظهر الإسلام كانت الفترة التاريخية مناسبة جدًّا، لأن العرب كانوا مستعدين ليصبحوا قوة متحدة، بينما كان الرومان والفرس على حافة الانهيار بسبب الفساد الداخلي وسوء الحكم...».

وهناك أسباب عديدة وراء ذلك الانتشار السريع المكثف منها:

1 – أن الإسلام دين بسيط لا يشبه الأديان الأخرى التي تحتاج إلى تعليم معقد، أو تأملات طقسية شاقة، أو تضحيات باهظة، الإسلام سهل وواضح، فالذي ينطق بالشهادتين مسلم، والذي يحافظ على الأركان الخمسة مسلم حسن الإسلام.

2 – الإسلام دين عسكري يعد بالمثوبة أولئك الذين يقاتلون في سبيله.

3 – الإسلام دين عالمي، وعلى الرغم من أنه قد انبثق في العالم العربي فإنه لا يعرف الحواجز أو الفوارق بين الشعوب، فالجميع عيال الله، والجميع مقبولون في الإسلام بلا تمييز.

4 – أن العالم المحيط بالمسلمين الأوائل كان مرتكبًا وفاسدًا، ولقد أساء الحكام البيزنطيون المسيحيون معاملة العرب المسيحيين واضطهدوهم، ومن أجل ذلك، فإن الفاتحين المسلمين لم يكونوا يقابلون – في تلك البلاد – على أنهم غزاة، بل كانوا يستقبلون على أنهم مخلصون[2].

أما «ننيان سمارت» فقد أرجع تلك السرعة المذهلة Amazing Rapidity في انتشار الإسلام إلى ثلاثة أسباب محددة هي:

(1) G. parrinder.p.18.

(2) L.Hopfe.p. 407.

أن للإسلام مؤسسًا واحدًا هو محمد (ﷺ)

وأن له وثيقة تأسيسية واحدة هي القرآن الكريم.

وأن له جانبًا سياسيًّا يفرض اتخاذ القرارات السريعة، مما ساعد على نجاحه العظيم[1].

ولقد ذكر «جون نوس» وجهة نظر متقاطعة مع ما ذكرناه لزملائه آنفًا، يقول: يمكن أن يكون الانتشار السريع للإسلام - في مراحله المبكرة على الأقل - قد جاء نتيجة حسابات معينة، كما أن وجهة النظر الإسلامية القائلة بأن سبب هذا الانتشار السريع هو الحركة الدينية الخالصة التي استهدفت إنقاذ العالم (من الوثنية) ولو بالقوة حين تدعو الضرورة ليست مقنعه، كما أن وجهة نظر المسيحيين في العصور الوسطى التي فسرت انتشار الإسلام على أنه كان نتيجة للدجل والطمع ليست مقنعة كذلك.

والرأي عند «جون نوس» أن انتشار الإسلام سريعًا جاء نتيجة عاملين متداخلين هما: العامل الديني والعامل الاقتصادي معًا، ويسترعى «نوس» النظر إلى أن محمدًا (ﷺ) قد وحد العرب لأول مرة في التاريخ، وبذلك أصبحوا قوة عسكرية يمكنها أن تمزج بين طموحاتها الاقتصادية وعقيدتها الدينية، وأن تنتشر خارج الصحراء حيث الخيرات الوفيرة، كما أن ضعف الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية بسبب الحروب الممتدة بينهما، قد هيأ الفرصة لهذه الفتوحات أن تبتلع الشرق الأدنى بسهولة ويسر[2].

9 - لماذا لم يعتنق العرب المسيحية؟

لقد أثار هؤلاء العلماء هذه المسألة، فتساءلوا قائلين:

مع أن الجزيرة العربية قريبة جدًّا من الشام مهد المسيحية، وقد كانت هناك روابط تجارية بينهما، فإن العرب لم يتأثروا بالمسيحية بشكل يتناسب مع الالتصاق

(1) N. smart.p. 278.

(2) John Noss. P707 - 708.

الجغرافي والاتصال التجاري، فلم كان ذلك كذلك؟

لقد شغلت هذه النقطة أذهانهم وحاولوا تفسيرها، ولنقتبس محاولة «لويس هوبفي» حيث يقول: إن تأثير المسيحية على العرب كان ضعيفًا لسببين مهمين:

أحدهما: الانقسام العقائدي المسيحي البيزنطي (الغربي) إلى فرق ومذاهب فيما يتعلق بطبيعة المسيح (عليه السلام)، وقد نشبت معارك عسكرية ولاهوتية بينهم من أجل تحديد العلاقة الصحيحة بين الله وعيسى.

ويقول «هوبفي»: ربما كان ذلك سببًا في تمهيد الأرض لرسول جديد يقول: لا إله إلا الله.

والسبب الثاني: أن الحكام البيزنطيين قد عاملوا المسيحيين العرب في مناسبات عديدة بقسوة وعنف، ولا ريب أن ذلك قد دفع كثيرين إلى الترحيب بفتوحات دين العرب الجديد في القرن السابع»[1].

معنى ذلك أن عدم الوضوح العقائدي للمسيحية في رأي لويس هوبفي – وعنصرية القائمين على أمرها من البيزنطيين لم تكن مقنعة لعرب الجاهلية، ومن ثم كان الوضع الديني والسياسي مهيأ لرسالة تبشر بـ (لا إله إلا الله).

10 – حرية الإنسان في الإسلام:

من أبرز خصائص الإسلام في الفكر الغربي عمومًا أنه دين جبري قدري، أي أن الجبرية Predistnation والقدرية Fatalism هما عنوانا الإسلام، وسبب ذلك في رأينا هو عدم رؤيتهم للخيط الرفيع بين القيومية المطلقة لله تعالى والتسليم التام لإرادته، ولعل السبب في ذلك أيضًا عدم إحاطتهم بالنصوص الكاملة في هذه المسألة، كما أن دقة الموضوع وصعوبته لا تخفي، فلقد وصفه الفيلسوف الفقيه ابن رشد الحفيد بأنه من أعوص المسائل الشرعية والفلسفية أيضًا.

(1) L.Hopfe.p. 389.

ولقد كان لعلماء الأديان موقف معقول من هذه المسألة في الإسلام، فهم قد رأوا أن كثيرًا من النصوص تميل إلى الجبرية والقدرية ومن ثم قالوا: إن في الإسلام نزعة قوية باتجاه القدرية، لكنهم رأوا في نفس الوقت تأكيد المسلمين على حرية الإنسان تأسيسًا على النصوص الشرعية، أي أن هؤلاء العلماء نظروا إلى المسألة من جانبيها معًا، الجانب الذي يؤكد الجبر، والجانب الذي يؤكد حرية الإنسان، بناء على أن الإنسان سيبعث ويحاسب على أعماله، فلابد أن يكون حرًّا لكي يسأل، ثم يثاب أو يعاقب.

يقول «هيوستن سميث»: بسبب من تأكيد القرآن القوي على طلاقة القدرة والإرادة الإلهية الكلية المسيطرة، فإن بعض المفسرين قد استنتجوا أن الإسلام يصادر حرية الإنسان. ولا ينكر مسلم أنه لابد من التوفيق بين الإرادة الإنسانية الحرة وطلاقة القدرة والإرادة الإلهية.

والأمر الذي ينكره المسلم هو أولًا: أن هذه المشكلة أكثر حدة في الإسلام عن أي «لاهوت» متطور آخر.

وثانيًا: وهو دفن المسلم في القدرية Lands the Muslim in fatalism وفي التحليل الأخير: الإنسان سيد عمله، وهو مسئول تمامًا عن القرارات التي يقوم بها[1].

هذا رأي «سميث»، أما « هوبفي »[2] فقد فصل المسألة قائلاً في القرآن: إن الإنسان مخلوق لله وأنه يجب أن يطيعه، والإنسان الصالح الذي سيفوز وبرضوان الله عليه أن يسلم وجهه لإرادته، وبسبب من تأكيدات الإسلام على قيومية الله، وطلاقة إرادته، فإن كلمات مثل: الجبرية والقدرية قد استخدمت لوصف الإسلام، وأدت إلى استنتاج أن في الإسلام نزعة قوية باتجاه القدرية حقًّا، وأن أكثر كلمة تردد بين المسلمين قولهم: إن شاء الله، ثم يقول «هوبفي»: مهما يكن من أمر فإنه ليس من الصواب القول بأن الإسلام قدري خالص؛ لأن جميع فرق المسلمين لا

(1) H.smith. p. 207.

(2) L.Hopfe.p. 398.

توافق على ذلك، والمسلمون عمومًا يعتقدون أن الإنسان مسئول - إلى حد ما - عن السيئات التي يجترحها، وأنه سوف يحاسب عليها، وأن الله تعالى بحكمته ورحمته قد منح الناس اختيارًا في الأمور التي هي مناط محاسبتهم، ومن وجهة النظر هذه فإن الناس يملكون حريتهم.

ويشير «هوبفي» إلى أن تطرف الفلسفة اليونانية المبكرة والكالفينية كذلك في الاعتقاد بأن الناس ليس لديهم اختيار في حياتهم، وسواء على الإنسان أن يعمل خيرًا أو شرًا، وأن ينجح أو يفشل، لأن كل ذلك بيد الله الذي يحكم العالم بناء على تقدير سابق، ويقول «هوبفي» بالنظر إلى ذلك الغلو فإن الإنسان لا يملك حرية الاختيار، لذلك فلن يكون مسئولًا عن تصرفاته، فالله كل شيء والناس دمي له.

إنا نعلم أن المشكلة عويصة، لكن النظرة النمطية إلى الإسلام في الغرب على أنه دين جبري قدري، بدأ هؤلاء العلماء في تحليلها بمنهجية، مع استرعاء النظر إلى أن هذه ليست مشكلة إسلامية خالصة، بل إن فرق المسلمين عامة ترفضها ولا تقول بها.

وبعد فالنقاط البحثية التي أثارتها دراسات هؤلاء العلماء المسلمين للإسلام عديدة، ووجهات نظر أصحابها تستحق المتابعة والمناقشة، لكن طبيعة هذا البحث التمهيدي أو الأول من نوعه لا تسمح بعرضها، وحسبنا أننا لفتنا نظر الباحثين المسلمين إلى أهمية هذا النوع من الدراسات الغربية عن الإسلام.

كما أننا حاولنا أن نجعل من كتابات هؤلاء العلماء التصحيحية، مناقشات غربية لشبهات أثارها كتاب غربيون ضد الإسلام، فكأن الغرب يحاور نفسه، ويدحض شبهاته بنفسه ضد الإسلام، وهذا ما دفعني إلى إعطائهم الفرصة ليتحدثوا بأنفسهم، ولم أتحدث عنهم، أو أختصر كلامهم.

كما ظهر لنا أن دراسة الإسلام مقارنًا بالأديان الأخرى أمر بالغ الأهمية لنا

وللعلماء الغربيين في نفس الوقت.

لأن الحقيقة تستبين وتسطع من خلال المقارنة، وتفرض نفسها على الباحثين الموضوعيين، وهذا يساعد على تصحيح صورة الإسلام في الغرب ويسهم في تخفيف روح الكراهية والعداء[1]، وعدم التقبل؛ مما يعمل على تحسين العلاقات الدولية التي تشكل مطلبًا ملحًّا للإنسان المعاصر.

بقي أن أشير إلى أن علماء الأديان الغربيين الذين ذكرناهم في بحثنا هذا، وإن شكلوا اتجاهًا له سماته العامة، فإنهم قد تفاوتوا في اجتهاداتهم وأطروحاتهم، ومن ثم رأيناها تتفق أحيانًا، وتتوازى بل وتتقاطع أحيانًا أخرى، والحقيقة أن هؤلاء العلماء قد كتبوا دراساتهم للقارئ الغربي أساسًا، لكن ذلك لا يمنعنا من الاستفادة ببعض النقاط أو الملاحظات أو العلاقات أو النتائج التي انتهوا إليها، بل ويدفعنا إلى إعادة تقييم فهمنا لجوانب معينة في ديننا، وأن نفهم أنفسنا فهمًا نقديًّا بنّاءً.

(1) هناك شواهد عديدة أهمها الواقع الذي نعيشه، فإننا نتنفس عداء الغرب لنا مع الهواء ونشربه في الماء وكتابات علماء الغرب العدائية أظهر من أن يشار إليها، وانظر ما كتبه صمويل هنتنجتون عن صراع الحضارات وما كتبه نائب رئيس البنك المركزي الألماني وما يبثه فلدرز في هولندا مثلًا.

obeikandl.com